

الدلالة الصوتية لقصار السور الكافرون والمسد أنموذجاً

المدرس المساعد

حيدر عبد الكاظم أحمد

مديرية تربية النجف الأشرف

haidaraldabaagh@gmail.com

The Onomatopoeia of the shortest Surahs Al – Kafiroon and Al – Masad as Sampls

**A.P Hayder Abdulkadhim Ahmed
Najaf General Directoate of Education**

Abstract:

All the Quranic formulation elements , the onomatopoeic element is included , are put intentionally, it carries various references especially in the Shortest Sorahs in accordance with threatening the disbelievers, so, it is very necessary to take some samples to clarify this idea . That is why Al- Kafiroom and Al- Masad have been chosen for they carry onomatopoeic echo that differs between each other. Thus, the aim of this research is to Show the onomatopic reference of these two Surahs and clarifying the intention behind this sounds clustering which is done to make the sound reaches the sound reaches the furthest point, and the explosive sound of (b) and the consonant (the explosive pause)in Al-Mesad with what it embodies the sense of snubs and threat using the (analytic descriptive method) as a guide .

Key words : Onomatopoeia , Separated Lengthening ,Addressing , Explosive pause ,Rebuke .

الخلاصة :

كل عناصر البناء القرآني جاءت بقدر مقصود ومنها العنصر الصوتي ، إذ جاء يحمل دلالات متنوعة وبخاصة في قصار السور وبحسب مقتضيات النص من وعد وموعظة وزجر الكافرين ووعيدهم ، فكان لزاماً أخذ نماذج لتوضيح الفكرة ، فوقع الاختيار على سورتي (الكافرون والمسد) ، لما يحملان من صدى صوتي مختلف عن بعضهما ، فكان هدف البحث إظهار الدلالة الصوتية لهاتين السورتين ، وتبيان القصدية من التراكم الصوتي للمد في سورة الكافرون ، والذي جاء لغرض إيصال الصوت إلى أبعد مدى ممكن ، وكذلك صوت (الباء) الانفجاري الساكن (الوقف الانفجاري) في سورة المسد وما يحمله من زجر وشدة ، مستعينا في ذلك بـ(المنهج الوصفي التحليلي) .

الكلمات المفتاحية(الدلالة ؛ المد المنفصل ؛ الخطائية ؛ الوقف الانفجاري ؛ الزجر).

المقدمة :

يأتي هذا البحث في إطار علم من علوم اللغة وهو (علم دلالة الأصوات) الذي يبحث العلاقة بين الصوت والمعنى ، فكان البحث في النموذج الأمثل للغة العربية وهو القرآن الكريم ، إذ سعى البحث إلى تلمس مظاهر العلاقة بين الصوت والدلالة في لغة القرآن الكريم من طريق دراسة تطبيقية تهدف إلى الكشف عن القيمة التعبيرية للنصوص القرآنية في قصار السور، متخذاً من سورتي (الكافرون والمسد) أنموذجاً تطبيقياً للبحث ، وذلك للاختصار ولتباين الظاهرة الصوتية فيهما ، وإلا فالدلالات الصوتية موجودة في كل قصار السور ، لذا لا يعدو البحث أكثر من إضاءة تسلط الضوء على الظاهرة الصوتية التي تلازم النصوص القرآنية .

الدلالة الصوتية :

مما لا يختلف عليه اثنان أن للأصوات القدرة على تكوين إيحاءية عند المتلقي ؛ بوصفها عنصراً أسلوبياً مهماً يدخل في تشكيل بنية النص مولداً أثراً جمالياً يسهم وبشكل فعال في إبراز المستوى الدلالي للنص .

ولا يظهر هذا الأثر بشكل جلي من قبل الأصوات في النص إلا إذا جاءت مترابطة مولدة ظاهرة خاصة في سياق النص ؛ لأن الأصوات حينما تتكرر تعمل على منح قيمة انفعالية وقدرة معينة على إنتاج الصور وتكوين فكرة معينة .

ولما كانت اللغة تمثل ((مجموعة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم))^(١) فإن الهدف الرئيس لهذه الأصوات هو إنتاج علاقات بنائية ودلالية مثمرة ، وهنا تأتي قدرة المنشئ في بسط سلطته على النص لتحريك الفكر عند المتلقي مستعيناً بالحضور الإيقاعي لإظهار الدلالة المنشودة .

فإذا تمكن المنشئ من إيجاد توافق بين الصوت والمعنى فإنه سوف ((يربط الفكر بالإيقاع الفني للكلمات ...)) وهذا من شأنه أن يجعل للكلمات وقعا نفسياً مؤثراً في ذهن المتلقي^(٢) . وقد أشار تمام حسان إلى ذلك بقوله : ((الصوت في اللغة العربية له إيجاء خاص فهو إن لم يدل دلالة محددة فهو يدل دلالة اتجاه وإيجاء ، فيشير في النفس نازعاً يحرضها على قبوله أو النفور منه))^(٣)

لذا نجد أن البنية الإيقاعية في القرآن الكريم تعد إحدى أهم عوامل الربط الصوتي بما تمتلك من تأثيرات سمعية تؤدي إلى إيجاد علاقات ربط نغمي بين الآيات ، فالإعجاز الصوتي للقرآن الكريم يتحقق عبر انتظام العلاقات الداخلية للبنية الصوتية^(٤).

وبما إن القرآن الكريم هو كتاب الله المعجز الذي جاء بلغة العرب ، وبما إنه يعد القمّة في الصياغة والبناء والتركيب لذا صار الأنموذج الكامل للغة العربية ؛ بل أصبح له الأثر الفاعل في الحفاظ عليها من الضياع ، وأعطائها الثبات في القواعد والألفاظ حتى إنها صارت تستمد أصولها من القرآن الكريم ومن هذه الأصول (الأصوات) لأنها أصل اللغة ، فكان ((من فضيلة القرآن الصوتية أن استوعب جميع مظاهر الدلالة في مجالاتها الواسعة وتمرس في استيفاء وجوه التعبير عنها بمختلف الصور الناطقة))^(٥).

لذا ظهرت هناك ثنائية متلازمة في اللغة بين الصوت (اللفظ) والمعنى ، فالألفاظ تكتسب دلالتها من جرس الألفاظ ومن هنا ظهرت العلاقة بين اللفظ والمعنى ، وهذا ما عبّر عنه ابن سينا (ت ٤٢٨هـ) بـ (نغم الجملة) أذ وصفه بأنه ذو وظيفة تمييزية من حيث الدلالة الإبداعية فيحدد ما نسميه (النبر) نوع الجملة إن كان نداءً أو تعجباً أو سؤالاً ، وقد وصف الأصوات وبين كيفية إدراكها في وصف العوالم النفسية التي تقتضي الإبانة عما في النفس والانفعالات وأثرها في التنغيم ، والأغراض التي يصدر الكلام عنها^(٦).

ويذهب ابن جني (ت ٣٩٢هـ) إلى أن الأصوات مرهونة بما تحملها من دلالات ، وأن المعاني تتلاعب بالألفاظ وأن الأصوات تابعة للمعاني ، فمتى قويت قويت ، ومتى ضعفت ضعفت ، وإن قراءة قوله تعالى {يا حسرة على العباد}^(٧) بالهاء الساكنة إنما هو لتقوية المعنى في النفس ، وذلك أنه في موضع وعظ وتنبية وإيقاظ وتحذير فطال الوقوف على الهاء كما يفعله المستعظم للأمر المتعجب منه ، الدال على أنه قد بهره وملك عليه لفظه وخاطره^(٨)، فهذه الدلالات جميعها من وعظ وتنبية وإيقاظ وتحذير تستلزم التنغيم تماماً في الاستعظام والتعجب والانبهار.

وقد أشار — ابن جني — إلى العلاقة بين الصوت والمعنى بقوله : ((فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب عظيم واسع ونهج مثلب عند عارفيه

مأموم ، وذلك أنهم كثيراً ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر بها عنها فيعدلونها ويحتدون عليها وذلك أكثر مما نقدر وأضعاف ما نستشعر^(٩) والتلاؤم الصوتي هو الذي يبعث الارتياح في النفس ، لذا كان للفظ القرآن الكريم وقعه الخاص في المتلقي المسلم والكافر على السواء وهو ما دفع الوليد بن المغيرة إلى القول في وصف القرآن الكريم : ((والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق وإن فرعه لجناة))^(١٠) وما كان هذا التأثير من رجل مشرك إلا لجمال تناسق ألفاظ القرآن وجمال التعبير الصوتي للمفردة ، لأن الكلام ((إنما يقوم بأشياء ثلاث : لفظ حاصل ، ومعنى به قائم ، ورباط لهما ناظم ، وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة ، حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ، ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه))^(١١) ، فما يحمله القرآن الكريم من إعجاز كبير جاء عن طريق جودة السبك وحسن النظم في الألفاظ التي أصبحت معجزة على من يعتقدون أنهم بلغاء في الفصاحة — ونعني بهم شعراء وخطباء العرب — فقد وجدوا أن للألفاظ أثراً كبيراً في هذا الإعجاز ، مما دفعهم إلى العناية باللفظ الذي كان مبعثه التناسق الصوتي القرآني ، إذ عمل على توجيه الدلالة عند المتلقي بشكل كبير، وهذا ما سنبينه في تحليل سورتي الكافرون والمسد تحليلاً صوتياً.

١- سورة الكافرون :

قبل تحليل السورة تحليلاً صوتياً لابد من الإشارة إلى أن الصوت الغالب على جو الآية هو (المد) والسبب في ذلك أن الرسول الأكرم (ﷺ) قراها على الملاء من قریش في المسجد الحرام^(١٢) ، واعتماد المد من قبله كان لإيصال الصوت إلى أبعد مدى ممكن ، فحروف المد قبل همزة الفصل تعطي للقارئ مسوغاً لإشباع حرف المد ؛ مما يلفت انتباه السامع إلى القصد ، فيقول ابن جني في ذلك : ((إنما تمكن المد فيهن مع الهمزة أن الهمزة حرف نأى منشؤه وتراخى مخرجه ، فإذا أنت نطقت بهذه الأحرف الصوتية قبله ، ثم تباديت بهن نحوه طلن وشعن في الصوت ، فوفين له وزدن في بيانه ومكانه ، وليس كذلك إذا وقع بعدهن غيرها وغير المشدد . ألا تراك إذا قلت : كتاب ، حساب ، سعيد ، عمود ، وضروب ، وركوب ، ثم لم تجدهن لينات ولا ناعمات ، ولا وافيات مستطيلات كما تجدهن إذا تلاهن الهمزة أو الحرف المشدد))^(١٣) . فالمد إذن يعطي

للصوت صفة الشيوخ والتركيز في ذهن المتلقي السامع مما يجعله أكثر علقه في الذهن . وهذا ما سيظهر جلياً عند تحليل النص .

{ قل يا أيها الكافرون }

تبدأ هذه السورة بفعل الأمر (قُلْ) ؛ لما فيه من أمر وقوة في النطق ، وهذا يأتي من أن القاف من الأصوات الانفجارية التي يخرج فيها الصوت دفعة واحدة . يقول كمال بشر ((تتكون الوقفات الانفجارية بأن يحبس مجرى الهواء الخارج من الرئتين حبساً تاماً في موضع من المواضع ، وينتج من هذا الحبس أو الوقف أن يضغط الهواء ثم يطلق سراح المجرى الهوائي فجأة ، فيندفع الهواء محدثاً صوتاً انفجارياً))^(١٣).

فهذا الصوت يجمع صفتين هما الوقف (حبس الهواء) ، ثم انطلاقه دفعة واحدة (الانفجار) ، لذلك يسمى (الوقف الانفجاري)^(١٤) ويأتي من أقصى الحلق ، مما يعطيه صدى أكبر وقوة أعظم فيجعل منه صوتاً لافتاً للذهن ، وطارقاً للسمع . ثم يردفه باللام وهو صوت ترددي يعمل على إطالة زخم القوة — قوة الصوت الانفجاري — لأن الصوت الانفجاري يأتي دفعة واحدة ويذهب ، أما اللام فإنها تبقى أطول لأنها ((من أوضح الأصوات الساكنة في السمع ، فهي ليست شديدة أي لا يسمع معها انفجار ، وليست رخوة فلا يكاد يسمع لها ذلك الخفيف الذي تتميز به الأصوات الرخوة))^(١٥)، ويزيد إبراهيم أنيس ((وفي أثناء مرور الهواء من أحد جانبي الفم أو من كليهما ، يتصل طرف اللسان بأصول الثنايا العليا وبذلك يحال بين الهواء ومروره من وسط الفم فيتسرب من جانبيه))^(١٦)، مما يطيل في مدة خروج صوت اللام ، هذه الإطالة هي التي تجعل مفردة (قل) أكثر صدى وأقوى رنيناً في ذهن المتلقي ، لذا عمد القرآن الكريم إلى افتتاح عدد من سورته وآياته بهذه المفردة ، مثل سور القلاقل وغيرها ، فضلاً عن كونها تُغيّر معنى الجملة من خبرية قابلة للصدق أو الكذب إلى إنشائية غير قابلة للصدق أو الكذب بواسطة فعل الأمر (قل).

ثم قوله تعالى ((يا أيها الكافرون)) الذي يظهر فيه أول مدٍّ ، والمد هو: ((عبارة عن مطّ الحرف أكثر من مقداره الطبيعي أي إطالة الصوت بحرف من حروف المد))^(١٧)، ويظهر ذلك في ألف (يا النداء) التي جاءت بعدها (همزة القطع) في لفظة (أيها) ، فتولد

المدّ وهذا ما يطلق عليه بـ(المد المنفصل)^(١٨) لمجيئه من توافق حرفين من كلمتين منفصلتين هي الألف من (يا النداء) وهمزة القطع من لفظة (أيها) .

إنّ ظهور المدّ مع النداء يحمل دلالة البعد المعنوي وإن كانوا قريبين من الرسول مكانياً ، فالكافرون بعيدون قلباً وفكراً أيما بعد عن الرسول الأكرم (ﷺ)، وهذه الدلالة يمكن أن نستشفها من المد ؛ لأنّ موضع حروف الكلمات ووزنها على صورة معينة تشعر بالمعنى ، فموضع الحرف في اثتلافه مع الحروف الأخرى هو الذي يجعل هذا الحرف أو ذاك يوحي بدلالة ما ، لذا نرى أن دلالة هذا الحرف في هذا الموضع تختلف عن دلالة الحرف نفسه في موضع آخر^(١٩) ، فوجود المدّ مع النداء أعطى دلالة البعد المعنوي التي قد لا تظهر لولا وجود المد الذي يستعمل غالباً للبعد .

ثم تأتي بعدها لفظة (الكافرون) التي في نهاية الآية الأولى مما يوجب على القارئ الوقف وهذا الوقف يستوجب من القارئ مد حرف المد (الواو) في لفظة الكافرون وهو ما يسمى بـ(المد العارض للسكون) ، ((ويتحقق في ما إذا جاء بعد حرف المد سكون عارض ، يعني : بأن يكون السكون عارضاً للكلمة بسبب الوقف ، لا إنه من بنية الكلمة))^(٢٠) ، فالوقف على النون جعلها ساكنة وهذا أوجب على القارئ مد حرف المد (الواو) والاصل في النون انها متحركة ، فوضعها في نهاية الآية هو لتسكينها حتى تولد مع الواو مدا يوافق المد المنفصل في بداية الآية (يا أيها) ومن ثم وجود مدين طويلين في آية قصيرة قوامها اربع مفردات ، مما يعطي انطباعاً بوجود قصدية من لدن المنشئ على انتقاء الألفاظ التي تولد هذا المد ، وهذا ما أكدته النظريات الأسلوبية الحديثة التي تلح على ((إبراز مبدأ الاختيار في كل عملية خلق فني ، إذ هي تنفي عفوية الحدث الأدبي اعتماداً على أن كل صوغ لسانی فني هو ضرب من الاختيار الواعي يستقصي به إثبات آليات الوسائل التعبيرية الملائمة لغرضه مما تمده به اللغة))^(٢١) ، فوضع المفردة في موضع ما لا يكون اعتباطاً بل عن قصد ووعي ، إذ إن ((كل كلمة في جملة هي اختيار))^(٢٢) ، وقد شبه ابن الأثير (ت ٥٦٣٧هـ) اختيار الألفاظ المفردة في نظم الكلام باختيار اللآلئ في نظم العقد بقوله : ((اختيار الألفاظ المفردة : وحكم ذلك حكم اللآلئ المبددة ، فإنها تتخير وتنتقي قبل النظم))^(٢٣) ، فبناء أي نص أدبي قائم على مقدار نجاح المنشئ في

اختيار المفردات المناسبة ، كيف لا والنص القرآني هو النص الإعجازي الذي بلغ القمة في البناء والنظم .

{ لا أعبد ما تعبدون }

جاءت الآية الثانية من سورة الكافرون تتصدرها (لا) النافية مع الفعل المضارع (أعبد) التي حملت معها مدأ منفصلاً ناسب المد المنفصل في الآية الأولى (يا أيها) ، فتكوّن من حرف المد الألف في (لا) وهمزة المضارعة في الفعل (أعبد) ، ولولا هذه الهمزة لما وجد المد ، فلو استعمل المنشئ لفظة (نعبد) لذهب المد . إذن هناك قصديّة واضحة لتكوين مدأ في الآية تهدف إلى جعلها أيقونة تدل على مقدار البعد بين الرسول والكفار كما وضحنا في الآية السابقة.

كذلك وجود حرف المد (الواو) قبل النون الساكنة في نهاية الآية جعلها تحظى بمدّ عارض يتناسب مع المد العارض الذي جاءت به الآية الأولى من أجل الحفاظ على نسق واحد في آية قوامها ثلاث مفردات .

{ ولا أنتم عابدون ما أعبد }

هذه الآية معطوفة على التي سبقتها بوساطة حرف العطف (الواو) ، ولأنّ التعبير جاء باستعمال صيغة اسم الفاعل (عابدون) قدّم الضمير المنفصل (أنتم) عليه ؛ حتى تأتي همزة الفصل التي تتصدر الضمير بعد حرف المد (الألف) في أداة النفي (لا) ، مما يجعلها تولد مدأ منفصلاً يوافق المد المنفصل في الآية التي سبقتها ، ولكون النفي يفيد المستقبل من خط الشروع الحالي للقول كان ممن الممكن للباري — عز وجل — استعمال أداة النفي (لن) التي تفيد نفي المستقبل بشكل قطعي ، إلا إنه استعمل (لا) النافية مع صيغة اسم الفاعل حتى يتحقق المد المرجو بوجود حرف المد (الألف) .

القرآن الكريم استعمل في الآية السابقة الفعل المضارع (أعبد) لدلالة الحال أو الاستقبال ، أما في هذه الآية فقد استعمل صيغة اسم الفاعل (عابدون) وهو استشراف المستقبل لأن صيغة اسم الفاعل لسيقة بحاملها ولا تنفك عنه فهي تحمل معنى الدوام والتكرار^(٢٤)، فهي تبيّن للكافرين بعدم الإيمان بالله وهو ما حصل بالفعل إذ مات المعنيون بالخطاب ولم يؤمنوا بالله ولم يعبدوه^(٢٥) .

وإنَّ اللفظة الجمالية والقصدية التنغيمية حاضرة بوضوح في استعمال الاسم الموصول (ما) الدال على غير العاقل ، ويؤتى بها لقصد ((الْبَهَام لتفيد الْمَبَالْغَة فِي التَّخْخِيم))^(٢٦).

والظاهر أنَّ هناك مغزى صوتياً من وراء استعمال (ما) الموصولة وهو تكوين مدٍّ منفصل يتناسب مع المدود السابقة ، وهذا المد يتكون من حرف المد (الألف) في (ما) الموصولة وهمزة الفصل في لفظة (أعبد) ، والدليل على ذلك إنَّ (ما) الموصولة في الآية السابقة (لا أعبد ما تعبدون) جاءت بحسب استعمالها الطبيعي (لغير العاقل) لأنَّ الكفار كانوا يعبدون الأصنام وهي جمادات غير عاقلة ، أمَّا الرسول الأكرم (ﷺ) فكان يعبد الله (عز وجل)، والقرآن الكريم استعمل نفس الأداة للحفاظ على المستوى التنغيمي والنبر الصوتي الموحد للآية . فحصول مدين منفصلين في هذه الآية القصيرة أغنى عن المد العارض الذي كان في نهاية الآيتين السابقتين

{ ولا أنا عابد ما عبدتم }

الواو حرف عطف ، عطف هذه الآية على سابقتها ، ثم جاء بعدها بـ (لا) النافية لتحمل نفس المستوى التنغيمي الذي جاء في الآية السابقة مشكلة مدّاً منفصلاً من حرف المد الألف في (لا) وهمزة الفصل في الضمير (أنا) ، والذي عمل عمل الضمير (أنتم) في الآية التي سبقتها للحفاظ على المستوى الصوتي والجو التنغيمي الموحد المتمثل بالمد . لذا نجد فيها إصراراً من لدن الله — عز و جل — على جعل حرف الألف (ممدود) وذلك عن طريق (الهمزة) التي بعده ، وهذه المرة بالضمير (أنا) لاستمرار زخم الخطابية الصوتية من قبل الرسول (ﷺ) فضلاً إلى ما فيه — أي الضمير المنفصل (أنا) — من توكيد قوي للضمير المستتر في (أعبد) الذي يعطي أيضاً شدة ، لأن الظاهر أقوى من المستتر .

{ ولا أنتم عابدون ما أعبد }

تكرار هذه الآية للمرة الثانية زيادةً في التوكيد ، وتأسيس للمشاركين من الدخول في الإيمان — كما بينا في شرح الآية الثالثة — فضلاً عن ذلك حافظ المنشئ على النسق الصوتي والمستوى الإيقاعي للآيات القرآنية ، فجاءت تحمل مدين وهو كما عبرنا سابقاً

دلالة القصدية الواضحة في الحفاظ على إيقاع منتظم للسورة حتى يناسب المدود السابقة فيها .

{ لكم دينكم ولي دين }

هذه الآية الكريمة هي الآية السادسة والأخيرة في تسلسل آيات هذه السورة ، والملاحظ فيها إنها خالية تماماً من المد ومن النفي ؛ هذان الملاحظان اللذان كانا شائعين في جو الآية مما يوحي بوجود قصدية في ذلك ؛ فلا يمكن لأحد أن يقول إن هذه اللفظة أو تلك الجملة جاءت بعفوية أو بشكل اعتباطي — معاذ الله — إنما القصد من ذلك إن الباري — عز وجل — بعد أن صك أسماع الكافرين بهذه العبارات الهادرة الرنانة وبعد إنجاز الغرض المرجو من الخطاب وهو جعل الكافرين ييأسون من إقناع الرسول (ﷺ) ، وييأسون من الدخول في الإسلام ، خفت نبرة الصوت وانحسر موج المد ، لكن ذلك لا يخفي ما لسكون الميم في (لكم — دينكم) من زجر وحدة وقوة ، وما تحمل في طياتها من ثبات في الموقف وإصرار وعزيمة دل عليه الكلام المثبت البعيد عن النفي ، وبذلك انتهت السورة بشكل حافظت فيه على نفس المستوى الصوتي تقريباً .

وأخيراً نصل إلى نتيجة مفادها أن التعبير القرآني استعمل المد جسراً في عملية تبليغ الكافرين ، الذي أعطى دلالة صوتية مفادها الخطائية العالية ورفع الصوت الذي صك آذانهم ، وأوحى للمتلقي بالبعد الشاسع بين الرسول (ﷺ) وبين الكافرين بالرغم من القرب المكاني وحضورهم في مكان واحد وهو المسجد الحرام .

٢- سورة المسد :

كان للدلالة الصوتية في سورة المسد الأثر الواضح على المتلقي بما تحمله من جو مشحون بالزجر والتوبيخ والوعيد على شخص عادي الإسلام هو وزوجته حتى باتت هذه السورة لعنة تلاحقه على مرّ الأجيال وستبقى خالدة بخلود القرآن الكريم .

ومعلوم في كتب التفاسير أن سبب نزول هذه السورة جاء بعد أن وقف أبو لهب — عم الرسول — موقفاً سلبياً معادياً للرسول (ﷺ) فعندما نزلت آية ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ (٢٧) ، جمع الرسول (ﷺ) الناس وقال لهم : إني نذير لكم بين يدي الساعة ، فقال أبو لهب : تباً لك ألهذا دعوتنا (٢٨) ؟ ، وهذا الموقف جعل الرد من الله (عز وجل)

زاجراً شديداً قوياً مما جعل الدلالة الصوتية لأسلوب الزجر طاغية على جوّ السورة ، وهذا مما سنبيته في تحليل السورة صوتياً — إن شاء الله —.

{تبت يدا أبي لهب وتب}

تبدأ هذه السورة بلفظة الزجر (تبت) وهي لفظة بمعنى (هلك وخسر) ، ((فالتَّبُّ: الحُسارُ. والتَّبَابُ: الحُسْرَانُ والهِلاكُ))^(٢٩). والمقصود هلكت يدا أبي لهب، حيث يبدأ كلام الله — عز وجل — بلفظة (تبت) والتاء حرف مهموس (انفجاري) يخرج منه الهواء دفعة واحدة بعد حبس ، ثم الباء الذي يخرج صوته من الشفتين بعد غلق الهواء ثم خروجه دفعة واحدة ، وهو مهموس أيضاً ، ثم لا يكاد يخرج الهواء حتى يحبس مرة أخرى مع مجيء (التاء) — تاء التأنيث — وهي ساكنة مما يعطي الوقف عليها قوة في الانفجار ، فتكون أصوات (تبت) انفجاراً فحسباً ثم انفجاراً فحسباً ، فهذه اللفظة تتكون من مقطعين مغلقين (تب — بت) ورسم المقطع الصوتي لهما (ت — ب | ب — ت) وهذا التتابع لهذه الأصوات الانفجارية بهذا الشكل ، ومن ثم ختمها بسكون يعطي زخماً نفسياً يبين مقدار الغضب والزجر في هذه اللفظة ، يتناسب والفواصل الموجودة في نهاية الآيات التي قامت على تسكين المفردات الأخيرة وما تحمله من دلالة شدة وزجر في الكلام ، ألا ترى إن الأمر والنهي مثل (اكتب ، لا تكتب) تكون نهاية الأفعال (ساكنة) للمفرد وهو الأصل قبل الإضافة — أي إضافة الضمائر إليه — هذه دلالة على إن السكون يحمل في طياته الشدة والتوبيخ ، ولهذا السبب جاء في نهاية الآيات في هذه السورة مع صوت الباء الانفجاري المهموس .

وإن استعمال الكنية — أبا لهب — بدل الاسم لهذا الكافر فيه آراء عديدة وأحد هذه الآراء هو إعطاء دلالة الخوف في لفظة (لهب) والتي تحمل صدىً مخيفاً يمثل سوء عاقبة هذا الكافر ، فلكونه من أهل النار ومآله إلى نار ذات لهب وافقت حاله كنيته ، فكان جديراً بأن يذكر بها ، ويقال أبو لهب كما يقال للشرير أبو الشر وللخير أبو الخير^(٣٠) ، فكان الجو الصوتي للسورة مشحون بالوعيد والهلاك والخسران والنار .

ثم تأتي (تب) الثانية لتحمل في طياتها شحنة الصوتية تناسب وتشاكل وتؤكد ما جاءت به (تب) الأولى ؛ للحفاظ على جو التوبيخ الطاغي على الآية ، إلا إن الثانية كانت إخبار بمعنى (وقد تب)^(٣١) ، وهذا إخبار بالمغيبات إذ ماتا هو وزوجته على الظلالة ، أما الأولى فكانت دعاء عليه بالهلاك . فضلاً عن ذلك الإيجاز الكبير الذي يرافق الزجر في هذه اللفظة ، ألا ترى إن استعمال الفاظ مثل (اصمت ، أو صه ، أو مه) هي ألفاظ موجزة تحمل دلالات كبيرة ويخيم عليها الزجر العالي .

فنتتهي الآية بما بدأت به مما يجعل صوت الزجر هو الصوت الطاغي عليها علماً إنها بدأت بالدعاء وانتهت بالإخبار عن المستقبل المظلم لهذا الكافر وخروجه من رحمة الله .

{ ما أغنى عنه ماله وما كسب }

ثم تأتي الآية الثانية ، فتأتي (ما) النافية متصدرة الكلام ، بعدها جاءت (أغنى) المبتدئة بهمزة التعدية التي عملت مع حرف المد (الألف) على تكوين (مدا منفصلا) ؛ حتى يكون الصوت طويلاً ، والذي يريد منه إشباع الألف في إيصال حرف (ما) إلى الأذنان بشكل أفضل ، مما يجعله صوتاً مدوياً يبقى عالقاً في الذهن ، لينسف كل جبروته وطغيانه ، فضلاً عن ذلك جاءت (أغنى) المنتهية بالألف المقصور مجانسة للألف الممدودة في (ما) لغرض الحفاظ على جمالية الإيقاع المنتظم ، والتعبير بالماضي للفعل (أغنى) هو لتأكيد وقوع عدم الإغناء .

إن حذف مفعول (أغنى) أعطى الفعل إطلاقاً عاماً ؛ أي لم يغن ماله عنه أي شيء يمكن أن يخطر ببال أحد (الخزي ، العذاب ، اللعن ، المرض ، سوء الذكر ...) هذا من جهة ، ومن جهة أخرى حتى لا يتعد النص عن أجواء الزجر والغضب ولا يتحول إلى تعداد ، فضلاً عن ذلك الإيجاز الصوتي الذي تطلبه الزجر — وهذا ما بيناه في الآية السابقة — كما إننا نجد إن (كسب) مرادف (ماله) فكلاهما تمثل الثروة ، وإنما جاء بها (سبحانه وتعالى) حتى تنتهي الآية بـ (الباء) مجانسة لـ(تب) الأولى ، وحتى يكون السياق الصوتي واحداً ، لإعطاء حالة من التنغيم أكثر وقعاً في النفس ، وهنا عملت الفاصلة القرآنية على إيجاد جو تنغمي واحد في السورة وهو جو الزجر والشدة .

{ سيصلى ناراً ذات لَهَب }

ثم يبين (الله) سبحانه وتعالى المصير الذي سوف يؤول إليه هذا الكافر وهو النار ، لذا استعمل (السين) التي تفيد الاستقبال لأن الفعل — وإن كان حتمي الوقوع — إلا إنه لم يقع بعد ، وهذا يبين دقة التعبير القرآني .

يصلى ناراً ((يُشَوِّى بِهَا وَيَحْسُ بِإِحْرَاقِهَا. وَأَصْلُ الْفِعْلِ: صَلَّاهُ بِالنَّارِ، إِذَا شَوَّاهُ))^(٣٢) ، وهذا تعبير قرآني مخيف يضيف إلى جو الزجر في السورة التصوير المرعب للمصير الذي سيؤول إليه هذا الكافر . ثم تأتي النكتة القرآنية الجميلة (ناراً ذات لَهَب) وهل توجد نار ليس فيها (لهب) ؟ الجواب (كلا) بالمنظار الطبيعي العادي القريب من الذهن . إذن ماذا أراد الله بهذه اللفظة (اللهب) ؟ جاء بها (سبحانه وتعالى) حتى توافق نهايات الآيات وتكون الفواصل متماثلة ، ويكون الكلام أكثر وقعا في النفس ، باعتبار إن (الباء) انفجاري والسكون دلالة الشدة ، وهذا يظهر واضحا في الفواصل القرآنية ، حيث نهاية الآية تكون ساكنة ، وحتى تتناسب ولفظة (لهب) في الآية الأولى للحفاظ على الجو الصوتي للسورة ، وأضاف بعض المفسرين ((وَوَصَفُ النَّارِ بِـ (ذَاتِ لَهَبٍ) لَزِيَادَةِ تَقْرِيرِ الْمُنَاسَبَةِ بَيْنَ اسْمِهِ وَبَيْنَ كُفْرِهِ إِذْ هُوَ أَبُو لَهَبٍ وَالنَّارُ ذَاتُ لَهَبٍ))^(٣٣) ، وإنها تبين مقدار اتقادها وقوة لهيها ، وهذه الصور يبينها الصوت المدوي لهذه اللفظة .

{ وامراته حمالة الحطب }

يعرج القرآن الكريم على زوجة (أبي لهب) في هذه الآية ، وهي (أم جميل) فقال : (حمالة الحطب) والتضعيف في الفعل دلالة (المبالغة) والكثرة في حمل الحطب ، كذلك قال : (حطب) والرواية تنقل إنها كانت تحمل الأشواك وتضعها في طريق الرسول (ﷺ) ليلاً حتى تؤذي قدماءه ، والتي كانت متوفرة في مكة باعتبارها بيئة صحراوية^(٣٤) ، فلم يستعمل اسم (الشوك) بل استعمل لفظة تمثل إحدى استعمالاته وهو (الحطب) ، إذ كان يستعمل في إيقاد النار ، وسبب استعمال لفظة (الحطب) لأنها تنتهي بـ (الباء) مجانسة للباء في فواصل الآيات الأخرى ، حتى يوقع في النفس التنعيم المناسب الذي يجعله عالقا في ذهن المستمع ، فضلاً عما تحمله هذه المفردة من دلالة الإحراق التي تتناسب مع اللهب تماشياً مع جو السورة ، فما تحمله على ظهرها سيكون حطب إحراقهم في نار جهنم .

{ في جيدها جبل من مسد }

ثم جاءت الآية الأخيرة ، والتي تحمل معها صوتاً متناغماً مع جو السورة ، إذ يقول سبحانه وتعالى (في جيدها جبل من مسد) نجد إن المقطع الأول من الآية (في جيدها) مجموعة أحرفه احتكاكية^(٣٥)، جمعت بأسلوب جميل سهل في النطق مناسب بأسلوب رائع ، عدا وجود (الدال) الذي هو حرف (قلقلة) ولأنها صغرى ، لا تأخذ من المقطع الصوتي شيئاً كثيراً ، في حين نجد إن صوت (الجيم) أكثر شيوعاً وانتشاراً مما يجعله الصوت الطاغى على المقطع ، فجاء ليخبرنا شيء وهو إن ما تتباهى به من كثرة القلائد لا تنفعها يوم القيامة ، لأن لفظة الجيد توحى بالحلي ((حَسَنَ هُنَا ذَكَرَ الْجَيْدَ فِي حُكْمِ الْبَلَاغَةِ لِأَنَّهَا امْرَأَةٌ وَالنِّسَاءُ تَحْلِي أَجْيَادَهُنَّ وَأُمُّ جَمِيلٍ لَا حَلِيَّ لَهَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا الْحَبْلَ الْمَجْعُولَ فِي عُنُقِهَا فَلَمَّا أُقِيمَ لَهَا ذَلِكَ مَقَامَ الْحَلِيِّ ذَكَرَ الْجَيْدَ مَعَهُ))^(٣٦) ، وإذا لاحظنا المقطع بالتسلسل (في - جي - دي - ها) ، نجد أصواته جاءت منسقة متوالية تحمل وزناً جميلاً لطيفاً ، وذات موسيقى عالية لأنها كلها جاءت مقاطع طويلة مفتوحة (ف — | ج — | د — | ه —) عملت على إيصال الصوت إلى كل أذن لكي تُسمع القريب والبعيد بهذه العاقبة السيئة .

ويمكن هنا أن نتلمس مسوغاً لاستعمال الأصوات الاحتكاكية في الآية ، هو إنشاء صورة في ذهن المتلقي تلخص في بقاء الحبل ملفوف على عنقها لمدة طويلة يوم القيامة وما يولده الاحتكاك من ألم لأن الحبل من مسد ، و((المسد: الذي قتل من الحبال قتلاً شديداً، من ليف كان أو جلد))^(٣٧) ؛ لأن البشرة الناعمة لا تحتل هذا الحبل الخشن .

أما المقطع (جبل من مسد) فقد ختم الآية بحرف (الدال) وهو من حروف الانفجار ، لكن ليس شفوياً مثل (الباء) ، فكانت نهاية السورة بنفس الشدة لأنها قلقلة كبرى ، إلا إن الشفتين مفتوحتين ، على عكس ما دأبت عليه السورة ، والتي كانت فواصل آياتها تنتهي بالباء ، والتي تعمل — أي الباء — على غلق الشفتين عند الوقف بها ، والمرجح إن فيها مغزى خاصاً ، لأنه لا يمكن لأي شخص أن يقول إن الله سبحانه وتعالى عجز عن إيراد لفظة منتهية بالباء . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

الخاتمة :

وفي نهاية المطاف توصل البحث إلى نتائج أهمها :

- ١- أن الخالق — عز وجل — في (سورة الكافرون) استعمل المدّ جسراً في عملية تبليغ الكافرين ، الذي أعطى دلالة صوتية مفادها الخطائية العالية ورفع الصوت الذي صك آذانهم ، وأوحى للمتلقي بالبعد الشاسع بين الرسول (ﷺ) وبين الكافرين على الرغم من القرب المكاني وحضورهم في مكان واحد وهو المسجد الحرام .
- ٢- رسم الصوت الانفجاري في (سورة المسد) صورة في الذهن تبين مقدار الزجر والشدة والوعيد للكافر أبي لهب وزوجته ، عن طريق تكرار الصوت الانفجاري ، وبالأخص (الباء) الساكن في ألفاظ السورة ، فكان لتراكمه الدور البارز في إظهار هذه الصورة إذ خاطبهما القرآن الكريم بألفاظ تعطي انطباعاً للمتلقي بمقدار الغضب والحنق الإلهي الذي يصبك الأسماع بتلك الكلمات الشديدة التي تنذر بالخسران وسوء العاقبة والمصير البائس .
- ٣- كان لقوله تعالى : ﴿وَرَبِّ الْقُرْآنِ تَبَيَّنَ﴾^(٣٨) الأثر الكبير في تبيان الدلالة الصوتية ؛ لأن الترتيل يضيف إلى تنغيم القرآن وإيقاعه إيقاعاً آخر مما يعطي للأصوات حقها الطبيعي عند القراءة ، وبالتالي إمكانية الوقوف على الدلالة الصوتية المنشودة ، وخصوصاً في قصار السور .

هوامش البحث

- ١- الخصائص : ٣٤ / ١
- ٢- تشريح النص : ١٠٧
- ٣- البيان في روائع القرآن : ١ / ١٧٥
- ٤- ظ : أثر الفاصلة القرآنية في التماسك النصي الصوتي في سور الحواميم السبع : ١١٣
- ٥- الصوت اللغوي في القرآن : ١٦٥
- ٦- ظ : الشفاء والخطابة : ١٩٨
- ٧- يس : ٣٠
- ٨- ظ : المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها : ٢ / ٢١٠
- ٩- الخصائص : ٢ / ١٥٩
- ١٠- سيرة ابن هشام : ١ / ٢٧٠
- ١١- بيان إعجاز القرآن : ٢٧

- ١٢- الكشف : ٨٠٨ / ٤
- ١٣- الخصائص: ١٢٥ / ٣
- ١٤- علم الأصوات : ٢٤٧
- ١٥- ظ : م . ن : ٣٧٨
- ١٦- الأصوات اللغوية : ٥٥
- ١٧- م . ن : ٥٥
- ١٨- الجديد في علم التجويد : ١١٢
- ١٩- م . ن : ١١٦
- ٢٠- ظ : الصوت اللغوي في القرآن : ١٦٣
- ٢١- الجديد في علم التجويد : ١١٩
- ٢٢- قراءة مع المتنبى والشايبى والجاحظ وابن زيدون : ٣١
- ٢٣- الأسلوب (دراسة لغوية وإحصائية) : ٢٣
- ٢٤- المثل السائر : ٢٤٥ / ١
- ٢٥- ظ : معاني النحو : ٣ / ١٥٢
- ٢٦- تفسير الطبري : ٢٤ / ٦٦١
- ٢٧- ظ : التحرير والتنوير : ٣٠ / ٥٨٢
- ٢٨- سورة الشعراء : ٢١٤
- ٢٩- ظ : الكشف : ٨١٤ / ٤
- ٣٠- لسان العرب : ١ / ٢٢٦
- ٣١- ظ : الكشف : ٤ / ٨١٤
- ٣٢- م . ن : ٨١٤ / ٤
- ٣٣- التحرير والتنوير : ٣٠ / ٦٠٥
- ٣٤- م . ن : ٣٠ / ٦٠٥
- ٣٥- م . ن : ٣٠ / ٦٠٥
- ٣٦- علم الأصوات : ٣١٠
- ٣٧- التحرير والتنوير : ٣٠ / ٦٠٦
- ٣٨- الكشف : ٤ / ٨١٥
- ٣٩- سورة المزمل : ٤

قائمة المصادر والمراجع

- الأسلوب (دراسة لغوية وإحصائية) : د. سعد مصلوح ، دار البحوث العلمية ، الكويت ، ١٩٨٠ م .
- الأصوات اللغوية : إبراهيم أنيس ، مطبعة نهضة مصر ، القاهرة ، (د. ت)
- بيان إعجاز القرآن . ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي (ت ٣٨٣ — ٥٣٨٨هـ) ، تحقيق : محمد خلف الله و محمد زغلول سلام ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٧٦ م .
- البيان في روائع القرآن : د. تمام حسان ، طبعة عالم الكتب ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤١٣هـ — ١٩٩٣ م .
- تشريح النص — مقاربات تشريحية لنصوص شعرية معاصرة : د. عبد الله الغدامي ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ١٩٨٧ م .
- تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل القرآن) : محمد بن جرير بن يزيد الآملي ، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ) ، تحقيق: أحمد محمد شاكر ، مؤسسة الرسالة ، ط ١ ، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠ م .
- الجديد في علم التجويد : مصطفى الصراف الكربلائي ، مؤسسة الفكر الإسلامي ، بيروت لبنان ، ط ١١ ، ١٤٣٨هـ — ٢٠١٦ م .
- الخصائص : أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (المتوفى: ٣٩٢هـ) ، تحقيق : محمد علي النجار ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط ٤ ، د. ت .
- سيرة ابن هشام : عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري ، (المتوفى: ٢١٣هـ) تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، ط ٢ ، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥ م .
- الشفاء والخطابة: ابن سينا ، أبو علي الحسن بن عبد الله ، تحقيق : محمد سليم سالم ، الدار المصرية للتأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٤ .
- الصوت اللغوي في القرآن : محمد حسين الصغير ، دار المؤرخ العربي ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ١٤٢٠هـ — ٢٠٠٠ م .
- علم الأصوات : د. كمال بشر ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ٢٠٠٠ م .
- قراءة مع المتنبي والشابي والجاحظ وابن زيدون : عبد السلام المسدي ، دار سعاد الصباح ، ط ٤ ، ١٩٩٤ م .

الدلالة الصوتية لقصار السور الكافرون والمسد أنموذجاً..... (504)

- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : أبو الفتح ضياء الدين ابن الأثير نصر الله بن محمد (ت ٦٣٧هـ) ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٩٩٥م .
- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها : أبو الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢هـ) ، تحقيق : عبد الحلیم النجار ، عبد الفتاح إسماعيل شبلي ، ١٩٩٤م .
- معاني النحو : د. فاضل صالح السامرائي ، شركة العاتك للطبع والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط٢ ، ١٤٢٣هـ — ٢٠٠٣م .

بحوث:

- ١- أثر الفاصلة القرآنية في التماسك النصي الصوتي في سور الحواميم السبع : م.م. فائزة ثعبان منسي الموسوي ، مجلة كلية التربية الأساسية ، مجلد ٢٢ ، العدد ٩٥ ، ٢٠١٦م .